المحاضرة الحادية عشرة

أسلوب القص في الحديث النبوي الشريف

محاضرة أسلوب القص في الحديث النبوي الشريف

تعريف القصة لغة:

سبق ذكره في محاضرة أسلوب القص في القرآن الكريم.

تعريف القصة في الاصطلاح:

نقصد بالقصص النبوي هنا: ما حكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه من أخبار الأمم الماضية وما حدث للأنبياء والمرسلين.

فوائـــد القصص وأهميتـــه:

ذكر العلماء عددا من الفوائد والأهداف المرجوة من ذكر القصص ، والتي منها ما يلي:

أولا: القصص – وخاصة القرآني والنبوي- من أفضل الوسائل في التربية والتهذيب والدعوة إلى الفضائل والتحذير من المنكرات.

ثانيا: قوة تأثير القصص في النفوس، فالنفوس البشرية تستعذب القصص وتستملح الحكايات ، وكثيرا ما تصغي إليها الآذان والقلوب أكثر من إصغائها لأي أسلوب آخر ، ومن هنا تأتي أهمية القصة في قوة التأثير وسرعته على النفس الإنسانية.

فالقصص له تأثير عجيب في غرس القيم التي أتي بها الإسلام ، وتثبيتها في العقول ، ولا غرو فالإنسان – بخلقته- يميل إلى القصص ، فكأنه مفطور على حبه منذ نعومة أظفاره ، حين كانت أمه تهدهده به حتى ينام على قصصها وصوتها سابحا في خياله مع ما قصت عليه.

ثالثا: الوعظ والتذكير ، والترغيب والترهيب ، والفرج بعد الشدة ، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار ، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق ، وما فيه من زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونيين ومواعظ للمؤمنين ، فليس المقصود من قصصهم أن تكون سمرا ، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيرا وعبرا.

بل كان رسول الله ﷺ يتأثر بقصص الأنبياء الذي قصه الله تعالى عليه في القرآن الكريم، إذ كانت ترد تثبيتًا لفؤاده وتقوية لصبره.

سمـــات القـــصص النبـــوي وخصائصـــه:

١. **الواقعية:** فكل قصص ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الحكاية والإعلام والإخبار، فإنه يدل دلالة قاطعة على أن ما ورد فيه من شخصيات وأحداث ، إنما هو حق وواقع لا زيادة فيه ناشئة عن تخيل أو رغبة في مزيد تأثير أو أن فيه شيئا من الأساطير التي هي أباطيل القول التي يخترعها الناس، فيجب الإيمان به كما ورد لأن هذه القصص لا اختراع فيها، كل ما في الأمر أنها سيقت بالأسلوب القصصي لتكون أوقع في النفوس وأقوى في لفت الأنظار والعقول.

٢. من سمات القصص النبوي أنه **قصص هادف**، فالقصص في السنة النبوية لم يأت لمجرد حكايات يتسلى بها، وإنما تساق لإيضاح مبدأ وللدعوة إلى فكرة وللنهي عن منكر وإرساء القيم الشرعية من خلال إبراز الأنبياء والصالحين كقدوة للمربين وكمثل عليا للبشر أجمعين، فهو يستهدف تربية الروح والعقل والجسد .

٣. من سمات القصص النبوي **التركيز على الأحداث لا على الأشخاص**، فالأسماء في القصص النبوي لم تكن مقصودة لذاتها إلا إذا كان في ذكر الاسم فائدة، والجانب الأهم في الشخصيات هو الموقف الذي تتخذه والمصير الذي تؤول إليه.

والمتتبع لقصص السنة يرى أنها جميعاً قد تحررت من قيود التحديد، زماناً ومكاناً، وانطلقت في مجال أرحب وأوسع بحيث يمكن تطبيقها على ما يشابهها في كل عصر ومصر، شأنها في ذلك شأن قصص القرآن الذي أبان الله تبارك وتعالى أن تأثيره لا يرتبط بزمانه، ولا يتحدد بمكانه، بل الشأن فيه كما قال ربنا: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى وبشرى لقوم يؤمنون﴾.

أنـــواع القصـــة في السنـــة النبويـــة :

ينقسم القصص في السنة النبوية – كما وكيفا – إلى خمسة أنواع:

أولًا: القصـــــة التاريخيـــة: وهي القصة التي تعرض لنماذج متفاوتة للنفس البشرية ، ونعني بكونها تاريخية أنها قد مضت في الزمان البعيد فأصبحت أثرا بعد عين.

والقصة التاريخية تهدف من وراء ذكر الأحداث التاريخية إلى بيان سنة الله – عز وجل – في خلقه ونتيجة الصراع بين الحق والباطل والخير والشر ، وتضئ الطريق أمام الباحث وتضع يده على ذخائر وكنوز من المعارف الإنسانية والعظات النافعة والدروس المستفادة .

وتشمل القصة التاريخية ما ورد من قصص الأنبياء والمرسلين وغيرهم ممن قص علينا النبي صلى الله عليه وسلم أحوالهم من بني إسرائيل وغيرهم .

أمثـــلة للقصـــة التاريخيـــة في السنـــة النبويـــة: قصة موسى والخضر عليهما السلام – قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام.

ثانيًا: القصـــة الغيبيـــة: وهي التي تتناول أحداثا ووقائع من صميم الغيب مستمدة من مشاهد الآخرة ، وهي – وإن كانت بالنسبة للإنسان غيبا مجهولا – فهي في علم الله – تعالى – حاضر مشهود ، فالغيب في علم الله – تبارك وتعالى – كالشهادة ، والآخرة كالدنيا ، والخفي كالظاهر ، والماضي كالمستقبل ، والسر كالعلانية سواء.

أمثلة للقصة الغيبية في السنة النبوية: الشفاعة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم – قصة في رؤية الله في الآخرة والصراط والشفاعة.

ثالثًا: القصـــة التمثيليـة: وهي كل قصة بدأت بما ينبئ أنها مثل مضروب لمشابهة حال المخاطبين لأحداثها، أو كانت غير منسوبة إلى أشخاص معينيين ودلت أحداثها على إمكان حدوثها من بعد أكثر من مرة.

أمثلة للقصة التمثيلية في السنة النبوية:

المثال الأول: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثم مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله فجعل الناس يطيفون به يقولون ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة فكنت أنا تلك اللبنة.

المثال الثاني: عن الحارث بن سويد قال دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض فحدثنا بحديثين حديثا عن نفسه وحديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دورية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده.

المثال الثالث: عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أحاديث منها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل بالحق وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها .

رابعًا: القصـــة القصيـــرة: وهي التي تتناول حادثا من الأحداث فتعرضه في صورة سريعة قوية في تعبيرات مركزة ، ومهمتها الإيحاء السريع والتأثير القوي لتبلغ غايتها في أقصر وقت ومن أقرب طريق ، ومن ثم فهي لا تتناول وقائع متصلة مترابطة ولا تعنى بالتفاصيل.

والقصة القصيرة لون متميز من ناحية العرض والأسلوب ، فهي لم تذكر تفصيلا ، ولم تأت بوقائع جديدة ، بل إن أحداثها مختصرة مركزة ، إنما الجديد في طريقة العرض وأسلوب الأداء مما جعل لها رونقا وبهاء وتأثيرا في شعور الناس.

أمثلة للقصة القصيرة في السنة النبوية:

المثال الأول: عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

المثال الثاني: عن الزهري أخبرني سالم أن بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثم بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

المثال الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث قال كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك.

خامسًا: القصـــــة الطويلـــة: وهي التي تشغل قطاعا كبيرا من الحياة وحيزا واسعا من الزمان والمكان، وتعنى برسم الشخصيات وإبراز سماتها وملامحها وتصوير الخواطر والانفعالات، وتذكر الأحداث مترابطة.

أمثلة للقصة الطويلة في السنة النبوية: قصة الأبرص والأقرع والأعمى – قصة أصحاب الغار.

أساليب إيراد القصة في السنة النبوية:

تأتي أهمية الأسلوب في القصة من جهة كونه الرداء الظاهري الذي تكتسي به المعاني، فعلى قدر الإجادة فيه تعلو قيمة المعاني أو تهبط.

وقد تنوعت أساليب إيراد النبي صلى الله عليه وسلم وسوقه للقصة على أوجه متنوعة منها:

أولا: تارة يورد النبي صلى الله عليه وسلم القصة في شكل حوار بين طرفين، وتارة يكون الحوار بين أطراف متعددة ومتداخلة في الحدث، وتكون القصة قد اشتملت على أكثر من شخصين يدور الحدث عليهم كما في قصة أصحاب الغار.

والحوار في القصص دعامة وركن إذ تصبح القصة بدونه ميتة لا حركة فيها، فيه تنقدح شرارة الضوء على العمل القصصي فتشيع الحياة والحرارة، والحوار في القصص يضرب بسهم وافر في نقل المشاعر والأحاسيس والحكم والعظات.

ثانيا: في أغلب القصص النبوي يعرض النبي صلى الله عليه وسلم التفصيلات أولا حتى يصل إلى نهاية القصة والعاقبة ، وأحيانا يذكر العاقبة أولا ثم يثني بذكر الأسباب الموصلة إلى هذه العاقبة كما في حديث عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وحديث الزهري أخبرني سالم أن بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثم بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

ثالثا: كثيرا ما ترد القصة في السنة النبوية مكونة من ثلاثة أطراف رئيسة، كما في قصص: أصحاب الغار الثلاثة، والأقرع والأعمى والأبرص، والثلاثة المتكلمون في المهد، والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وغيرها.

رابعا: يورد النبي صلى الله عليه وسلم القصة بكل ما فيها من أقوال وأفعال ولا يعقب عليها ، إنما يترك القارئ أو السامع يستنبط منها ما يقدر على فهمه من الدروس والعبر ، وأحيانا يعقب النبي صلى الله عليه وسلم على القصة إذا سأله أحد من الصحابة عن شيء في القصة كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا فقال في كل ذات كبد رطبة أجر".

وقد يجئ التعقيب من الصحابي راوي الحديث، كما عن أبي هريرة رضي الله عنه ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية: أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع. قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا بن آدم، فإنه لا يشبعك شيء .فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم.

خامسا: كما اتسم أسلوب القصة النبوية برقيّ الأسلوب: فكثير ما تتعرض القصة النبوية لتصوير لحظات الضعف التي تعتري الإنسان غير أنها لا تهبط إلى المستوى المتدني الساقط، وإنما تنتقي من العبارات ما يخدم هدف الإسلام من شيوع النظافة والسمو في كل مجالات الحياة ومن الأمثلة الدالة على استعمال القصة النبوية لألفاظ عفيفة عند التعرض لمواقف الفاحشة، وهجر العبارات المكشوفة، وذلك نحو قول المرأة التي روادها ابن عمها عن نفسها في قصة أصحاب الغار: "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه".